المنشآت الصحيّة بالمغرب عبْر التّاريخ

بمناسبة السنة الدولية للمعاقين

د . عبدالهادي التّازي

كلنا يعرف عن التنافس القوي الذي امتد بين الخلافة العباسية في بغداد والخلافة المُوَحِّدية في المغرب، في أعقاب سحب الموحدين اعترافهم بسيادة العباسيين، وإلغاء ذكرهم في أعلى منابر المغرب ومن العملة المغربية.

ولقد تجلّت مظاهر ذلك التنافس في شتى الميادين، واتخذت لها مواقف صراع تختفي آثاره لتظهر مرة أخرى. وقد نقل التاريخ عدداً من الأخبار تدلّ جميعها على أن الموحدين في المغرب كانوا يُعدّون العدّة لِتَزَعُّم دولة إسلامية واحدة، وأن العباسيين في المشرق كانوا يرون في الموحدين خطراً على كيانهم. وقد كان من المعقول جداً، بالنسبة للمغاربة، أن يراقبوا مسيرة بغداد، إذ كانوا يطمحون إلى مستويات أفضل وأمثل.

ومن هنا وجدنا أنه، إلى جانب اهتمام المغرب بما يظهر من مذاهب هنالك وبما ينسخ من مخطوطات، كان يُعْنَى جيداً بكل مظاهر الحضارة التي تصل أصداؤها، ويبذل غاية جهده، ليس فقط لتزويد المملكة الخلافية بمثلها، ولكن ليكون المتفوق المجلّى فيها.

وبهذا كان المغرب بين الاستفادة من الغرب عن طريق الأندلس ومن الشرق عن طريق بغداد.

وبهذا نفسر ظهور المدارس المغربية مباشرة بعد المدرسة النظامية، ونفسر ظهور الكراسي العلمية على أثر ما بلغ عن كراسي المعاهد البغدادية، ومن أجل

ذلك أيضاً سمعنا عن نصب الساعة المائية في مراكش وفاس بعد ظهور الساعة المائية بمدرسة المستنصرية. وفي إطار ذلك التنافس أيضاً شاهدنا إنشاء سلسلة البيمارستانات في عدد من قواعد المغرب، وعلى رأسها مدينة مراكش.

(البيماريستان) كلمة فارسية مركبة من كلمتين: بيمار: تعني المريض، واستان التي تعني مكان، دار. باك استان: دار الطهر، أفغان استان دار الأفغان. ترك استان أرض الترك إلخ ... فمعنى بيماراستان: دار المريض.

وإذا كنا لا نتوفر على وصف مدقق لكل تلك المستشفيات، فإن من حسن حظنا أن نجد عبدالواحد المراكشي يقدّم مستشفى مراكش بهذه العبارات:

"وبنى يعقوب المنصور في مدينة مراكش بيمارستان ما أظن أن في الدنيا مثله؛ وذلك أنه تخير له ساحة فسيحة بأعدل موضع في البلد، وأمر البنائين بإتقانه على أحسن الوجوه؛ فأتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخارف المحكمة ما زاد على الاقتراح؛ وأمر أن يغرس فيه مع ذلك جميع الأشجار، والمشمومات والمأكولات؛ وأجرى فيه مياهاً كثيرة تدور على جميع البيوتات، زيادة على أربع برك، في وسط إحداها رخام أبيض؛ ثم أمر له من الفرش النفيسة من أنواع الصوف والكتان والحرير والأديم وغيره بما يزيد على الوصف ويأتي فوق النعت؛ وأجرى له ثلاثين ديناراً في كل يوم برسم الطعام، وما ينفق عليه خاصة، خارجاً عما جلب إليه من الأدوية؛ وأقام فيه من الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال؛ وأعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء. فإذا برئ المريض، فإن كان فقيراً أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل، وإن كان غنياً دفع إليه ماله وتركته وسببه؛ ولم يقصره على الفقراء دون الأغنياء، بل كل مريض بمراكش من غريب حمل إليه وعولج، إلى أن يستريح أو يموت. وكان المنصور في كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخل

(البيمارستان) يعود المرضى، ويسأل عن أهل بيته يقول: كيف حالكم؟ كيف القومة عليكم؟ إلى غير ذلك من السؤال، ثم يخرج. ولم يزل مستمراً على هذا إلى أن مات، رحمه الله".

قصدت بإيراد هذا النص كاملاً لأنه يُعْتَبَر وثيقة من أجمل الوثائق المغربية المعبرة عن قمة ما وصلت إليه العناية بالمصاب.

ثلاثون ديناراً يومياً برسم الطعام – قسم للصيدلية لتحضير الأشربة والأدهان والأكحال – ثياب ليل على حدة ونهار على حدة ... في الشتاء والصيف ... يستوي الغني والفقير في المعالجة، الخليفة يتفقد المرضى بنفسه...

هل يمكن أن نقارن هذا المستشفى ومستشفى بغداد الذي تحدث عنه ابن جبير عندما زار العاصمة العباسية عام ٥٨٠ = ١١٨٤، أي في نفس السنة التي نصب فيها المنصور الموحدي؟

لقد تحدث ابن جبير عن بيمارستان بغداد على أنه قصر كبير يزود بماء دجلة، وأنه يحتوي على كل المرافق التي توجد في القصور الملكية.

إني على مثل اليقين أن هذا مظهر بارز من مظاهر التنافس الجاد والحاد بين بلاط بغداد وبلاط مراكش ... إن المراكشي كان يزن كلامه وزناً عندما قال: "إنه لا يظن أن في الدنيا مثل مستشفى مراكش"، مع العلم أن المراكشي يعرف المشرق والشرقيين، وزار مصر واستقر بالعراق حيث ألف كتابه المعجب هناك.

فماذا كان عن الاحتياطات والإسعافات التي تقدم للمرضى؟ أتصور المريض الذي يرتدي لباساً له في الليل غير اللباس الذي يكون له في النهار، أتصور بجانبه (بيانات) تكشف عن تطور علاجه وماذا يتناوله اليوم وغداً...

إن الذين يحتاطون للمريض العادي مثل هذا الاحتياط ينبغي أن نتصور عنايتهم بالآخرين الذين قدر لهم أن يصنفوا ضمن مرضى آخرين من نوع ثان.

"لنتصور أن أبا يعقوب يوسف، والد المنصور السالف الذكر، عندما داهم الوباء عاصمة الموحدين عام ٥٧١=١١٧٦، فرض نظاماً رائعاً ما كُنّا نتصوره لولا أن التاريخ أهتم به ... "كان الرجل لا يخرج من منزله حتى يكتب اسمه ونسبه ومكانه على ورقة يجعلها في جيبه، فإن مات حمل إلى أهله".

إذا كان الاهتمام يصل بالنسبة للقادرين إلى هذا الحد، فكيف نتصور الاهتمام بالنسبة للذين لا يقدرون على التعبير؟ للذين لا يستطيعون الاعتماد على أنفسهم؟ للذين يتهددهم الضعف والعوز والخصاص؟

لقد ورد في ترجمة الوليد بن عبدالملك، الذي كان من رجاله موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد، وردت هذه الإفادة التي تلخص كل ما يمكن أن يقال عن العناية المثالية السامية بالمعاقين:

"جعل الوليد لكل أعمى قائداً يتقاضى نفقاته من بيت المال، وأقام لكل مقعد خادماً".

وهكذا شاهدنا أن الدولة بمجرد ما تشعر بوجود معاق في البلاد يكون عليها أن تقوم بمبادرتين على الأقل: الأولى تكليف مساعد يكون إلى جانب ذلك المعاق، والثانية: تخصيص مبلغ من المال لذلك المكلف حتى لا يشعر بأنه يتطوع فحسب، ولكنه موظف يتقاضى أجرة على ما يقوم به ... هذا طبعاً إلى العمل الثالث الذي يتجلى في ضمان العيش أيضاً لذلك المعاق متى كان في حاجة إلى أن يعيش كسائر الناس!

هناك حديث شريف يقول: "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً". ونحن لا نقف لا قليلاً ولا طويلاً أمام "البنيان"، أي بنيان كان، لنعرف تركيبه ومادته ... هل هو كله من آجُرّ من قياس واحد، من طينة واحدة، من طبخ واحد ...؟ أبداً، إن فيه الحجرة الكبيرة والصغيرة، والصحيحة والمكسورة، ومن ذلك كله يقوم البنيان.

وهذا البنيان مثل حي من أمثلة المجتمع الذي يهتم فيه القادرون بالقاصرين.

هذا تفسير صائب سمعته ذات مساء من درس ألقاه جلالة الملك بنفسه في قناة الدروس الحسنية أواسط رمضان ١٣٨٢، أواسط دجنبر ١٩٦٧.

المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ... ولا نزيد المرصوص لأنه ليس بمنصوص.

وهكذا كنا نتصور أن مستشفيات المغرب وبيمارستانات المغرب كانت مزودة، ليس فقط بما يُحتاج إليه من علاج ودواء، ولكن كذلك بما هو ضروري لسيرها، من ممرضين ومساعدين وموظفين من شتى الأُطُر، كان على رأسهم أمثال ابن طفيل، وابن رشد، وابن زهر الحفيد. هكذا كان بيمارستان مراكش ... وهكذا كان كذلك أشباهه في المدن الأخرى.

وقد سلك بنو مرين في هذا الموضوع طريق أسلافهم الموحدين، فاهتموا كذلك بالذين أعاقهم الزمان ... ومن ثمت شاهدناهم يخصصون الأوقاف الضخمة، سواء على صعيد الدولة أو صعيد الشعب، ليوفروا للكل الحياة الكريمة الآمنة في كل الميادين المغربية.

سوف لا أطيل هنا بذكر الأمثلة الرقيقة الشفافة التي التفت بنو مرين إليها. ولكني لا أغفل اهتمامهم بإنشاء دور للمكفوفين من شأنها أن تحميهم وترعاهم ولا تضطرهم إلى الوقوف على باب واحد.

إن الدولة التي كانت تهتم بعلاج المصابين من الطيور في عنان السماء، لا يمكن أن تترك وسيلة لعلاج الإنسان المنكوب الذي يمشي على الأرض!!

لقد عرفت المؤسسات الصحية في عهد بني مرين ترفاً وازدهاراً تحدثت عنهما المدونات والسجلات، بالرغم من الظروف العصيبة التي مرت بها الدولة في أواخر أيامها ... هنا دور لرعاية المعاقين والمعاقات والمُقِلّين والمُقِلّات. وقد اقتفى السعديون نهج بني مرين، فشاهدنا بيمارستان عبدالله الغالب بالله في مراكش، على نحو ما شاهدنا العلويين يقومون به من إعادة الحياة إلى بعض المنشآت المهددة، وحرصهم على أن ينشئوا من جانبهم أماكن للعلاج ... وصلت أحياناً إلى ضواحي المغرب، وعلى نحو ما رأينا في زاوية سيدي علي بو غالب بفاس، وسيدي بنعاشر بِسَلا...

لقد كانت الدولة تجعل هذا الموضوع في صدر اهتماماتها، وكانت تكل الإشراف عليه إلى (المحتسب) الذي يتحرك ويتجول ويراقب ويتابع ... ولأَمرٍ ما وجدنا أن محكمته كانت بجانب مستشفى سيدي فرج بفاس.

هناك ظاهرة ممتعة تدخل في إطار حياتنا اليومية ... كانت مما اهتم به التشريع وبخاصة في بلاد الغرب الإسلامي:

فحتى تعطي الدولة دليلاً للقاصرين على أنهم يتمتعون بكل ما يتمتع به القادرون، أجازوا لهم أن يباشروا كل أنواع النشاط الاجتماعي ... مكتفين بلغة **الإشارة** التي نرى الأمم الراقية تتبجح بأنها المبتكرة لها كوسيلة للترفيه عن المصابين.

إن لغة الإشارة في المغرب كانت معتمدة في كتب الفقه الإسلامي كقاعدة تُبنَى عليها الأحكام.

لقد عقد ابن عاصم، وهو من رجال الفقه الأندلسي، فصلاً خاصاً بالتعامل مع الذين يفقدون سمعهم لسبب من الأسباب، أو مع الذين لا ينطقون ... ومع الذين لا ينظرون ... وحتى مع من أضحى يفقد الثلاثة، على نحو ما قرأناه في بداية هذا القرن عن السيدة الأميركية الشهيرة هيلين كيلير، التي كانت لا تسمع ولا تنطق ولا ترى، ومع ذلك استطاعت – بفضل العزيمة والعناية– أن تنال ألقاباً أكاديمية عليا ... وأن تؤلف وتكتب.

ذلك الفصل الخاص بالتعامل مع المعاقين يحتاج وحده إلى كتاب، وهو، أي ابن عاصم – كما يفهم منه– يدعو دعوة صارخة لفكرة تعلم الإشارات، وعليها يعلّق الأحكام.

فهو يقول: إن العقود بكل أنواعها يمكن أن يباشرها أولئك حسب دلالات الإشارة، وإن بإمكان الشهود أن يتلقوا الشهادة من أولئك على نحو ما يتلقونها من السالمين ... وإن الأمر بالتالي يعتمد على أن يفهم المعاق وأن يُفهِم غيره...

يقول في تلك الأبيات الخفيفة:

ومن أصمّ أبكم، العقود * جائزة، ويشهد الشهودُ

بمقتضى إشارة قد أَفْهَمَتْ * مقصوده، وبرضاه أَعْلَمَتْ

وإن يكن مع ذاك أعمى امتنعا * لفقده الافهام والفهم معا

وذو العمى يجوز الابتياع له * وبيعه وكل عقد أعمله

نرى كيف أن الفقه الإسلامي يحتضن هؤلاء المعاقين ويجد صيغة للتعامل معهم على قدم المساواة.

وتعالوا بنا نستمع إلى نوع آخر من العناية بالمصابين – والمؤمن مصاب– كما يقولون:

إن الطفل الخائف قد يتسبب له خوفه في أزمة تلازمه حياته كلها ... فحتى يجنبه المجتمع ذلك الخوف وجدنا أوقافاً وأحباساً تؤدى بمقتضاها تعويضات للأطفال الذين كسروا أواني لأوليائهم، وأصبحوا يخافون من مواجهة العقاب والعتاب ... فحتى يشعر الطفل براحته ضمنت له الأوقاف هذه الفرحة.

إن (الحب كريم) كما يقولون، لا يوجد له تعبير خاص ولا يحتاج إلى تفسير خاص، ولكنه الحب الذي يجب أن يهيمن على تصرفاتنا وحركاتنا ومبادرتنا مهما كان الأمر.

أريد من كل هذا الكلام أن أخلص إلى القول: إنه إذا كانت الأمم اليوم تقوم بمثل هذه المبادرات الجميلة، فتخصص عاماً من حياتها للاهتمام بهذا النوع من الناس، فإن المغاربة بالأمس جعلوا من حياتهم كلها فرصة للتعبير عن العناية والاهتمام ... ولا شك أن أبناء المغرب اليوم سيكونون في مستوى أريحية آبائهم بالأمس ...!

د. عبدالهادي التازي